الصوم عن القاهرة
فى يوم العيـــد

[رسالة مهداة إلى الأستاذ الزيات ،
وإلى من تعنيهم مكانة القلم البليغ]

للدكتور زكى مبارك

كان من السنن الجميلة أن أقضى يوم العيد بين أهلى فى الريف وكان للعيد فى حياتى تأثير جميل ؛ فقد كنت أسمع من أمى وخالاتى وعماتى دعوات أكاد أشهد صعودها إلى السماء

وما أذكر أنى قضيت العيد بعيداً عن أهلى إلا فى الأعوام التى قضيتها بين الاعتقال والاغتراب ، ولله حكمة عالية فى ابتلاء القلوب بألوان من الضجر والضيق تؤهلها لإدراك بعض المجاهيل من بيداء الوجود

وفى صبيحة أحد الأعياد مضيت إلى « سنتريس » وأنا خالى الذهن من المفاجئات ، فراعنى أن أرى أبى يجذب يدى فيقبلها بحرارة وشوق ، وكنت أنا الذى يقبل يمناه فى جميع فرص اللقاء ولو أتيحت فى اليوم الواحد عشرات المرات ، فماذا فهمت من ذلك العطف الجديد ؟

قدرت أن أبى سيموت ، وأنه لم يقبل يدى إلا إيذاناً بالوداع ، وأننى لن أراه فى مثل ذلك اليوم من السنة التالية ، وأن الدنيا لن تسمح بأن أرى العيد فى صحبة صديق كان غايةً فى صباحة الوجه ، وحصافة العقل ، وطهارة الوجدان . وهل رأت عيناى رجلاً أفضل من أبى ؟

وصفه المسيو دى كومنين لأحد محدثيه بهذا الوصف الطريف :

C'était un vieillard de chez nous

يرحمك الله ، يا أبى ! ويرحم أيامى فى رعاية قلبك الرفيق !

كان أبى يحبنى إلى حد الإسراف ، وكنت خليقاً بذلك الحب ، فما بت من أجلى ليلة واحدة وهو محزون أو مكروب . وهل جشمت أبى ما لا يطيق ، أو فرضت عليه أن يحسب لمتاعبى أى حساب . مع أنه لم يمت إلا بعد أن تعرس كاهلى بحمل الألوف من المصاعب الثقال ؟

ثقل على قضاء العيد فى الريف بعد موت أبى ، فكيف كان العوض من ذلك الحرمان ؟

أشار أخ كريم بأن أزور قصر جلالة الملك يوم العيد لأقيد اسمى فى دفتر التشريفات ، فماذا غنمت من تحقيق ذلك الاقتراح الجميل ؟

كنت أبكر قليلاً ، لأسير فى شوارع القاهرة لحظات قبل أن أصل إلى قصر جلالة الملك ، فعرفت من جمال القاهرة ما لم أكن أعرف . وما ظنكم بمدينة لا يستطيع العيد أن يزيدها جمالاً إلى جمال ؟

كان يروعنى أن أرى القاهرة لا تتأثر بالعيد ، وكيف وجميع أيامها أعياد ؟

وهل يمكن أن تمر بأحد شوارع القاهرة فى أى وقت ، ثم تعود وأنت فى أمان من الفتون ؟

إنى أحسد من يرى القاهرة لأول مرة ، أحسده وأحقد عليه ، فالبرغم منى أن يكون لى فى هواها شريك ، ولو كان من أكابر أهل الوفاء

وأقول « أول مرة » لأنى أخشى أن يكون طول الإلف قلل من طرافتها فى عينى ، وإلا فكيف جاز أن يكون طوافى بشوارعها مقصوراً على أوقات الأعمال ؟ ألا تمر أسابيع فى أيام الإجازات بدون أن أستصبح بنورها الوهاج ؟

وأرجع فأدون أنى كنت أصل إلى قصر جلالة الملك بعد أن أطوف بشوارع القاهرة لحظات ، فأرى القصر يموج بالمهنئين من الوزراء والقضاة والمحامين والنواب والشيوخ والأعيان ، وألتفت فأراني أستقبل كل قادم ، وأودع كل ذاهب ، كأننى فى دارى ، وأنتهب الفرصة فأدير المناقشات الأدبية والاجتماعية مع من أصادف هنالك من رجال القلوب والعقول ، ولا أنصرف إلا بعد أن أطمئن إلى أنى عيدت على أكثر من أحب أن أراهم فى يوم العيد

وكان جلالة الملك رأى أن يخفف على شعبه الأمين تكاليف التشريفات ، فكان الوافدون على القصر للتهنئة لا يشعرون بالفروق الموروثة بين الطبقات ، وكان حظ أى زائر مماثلاً تمام المماثلة لحظ رئيس الوزراء

ثم ماذا ؟ ثم جاء هذا العيد بجديد لم ألتفت إليه من قبل

نظرت فى منهاج التشريفات فهالنى أن لم أجد فيه مكاناً لرجال القلم البليغ ، مع أن لرجال القلم نصيراً فى قصر جلالة الملك ، هو الرجل أحمد محمد حسنين ، وكان من لطائفه أن يراعى هذا الشأن الدقيق

مليكنا العظيم الشاب يسره أن يشهد جميع ما فى وطنه من القوى الحيوية ، وأعظم القوى فى مصر هى قوة القلم البليغ ، فكيف يصعب علينا أن نصافح جلالة الملك فى يوم العيد ، ونحن رسل الثقافة المصرية فى الشرق ؟ . .

إن أقلامنا هى زينة الوطن فى أعوام النعماء ، وسناده فى أيام البأساء ، فكيف يحال بيننا وبين مصافحة رمز الوطن فى يوم العيد ؟

رجال الدين لهم فى التشريفات الملكية مكان ، وللوزراء والسفراء مكان ، ولكبار رجال الأعمال مكان ، فأين المكان المحفوظ لأقطاب القلم البليغ ؟

أعيذ القارئ أن يتوهم أنى أطالب بمقاعد رسمية ، تتمخض من سمو المنزلة الأدبية ، فما نحن طلاب ظواهر ، وإنما نحن طلاب معانى ، والقصر هو الرمز المعنوى لروحانية هذه البلاد ، ونريد بصراحة أن يكون لنا فى ظلاله مكان ، باسم الفكر والبيان .

الأدب للأدب ...

ولهذا المعنى نطالب بأن يكون له فى التشريفات الملكية مكان

قد يقال إن حملة الأقلام فى مصر يعدون بالعشرات أو بالمئات ، ومن الصعب أن يوضع لهم نظام فى التشريفات .

وأجيب بأن من السهل أن يكتفى بالطبقة الأولى ، وأفرادها لا يحتاجون إلى تعريف ، ثم تكون هذه الطبقة رمزاً للقوة الأدبية فى التشريفات ، ليعرف رجال القلم أن حظهم غير ضائع فى هذه البلاد

كان متوسط ما يصدر عن المؤلفين المصريين اثنا عشر مجلداً فى كل يوم ، قبل أن ترتفع أثمان الورق ، فهل أقيم لجهودنا ميزان فى وزارة المعارف أو رياسة مجلس الوزراء ؟

واسم مصر يرتفع من يوم إلى يوم فى أقطار اللغة العربية بفضل القلم البليغ ، فهل جوزى حملة الأقلام على ذلك الجهاد ؟

نحن أغنياء بأقلامنا وأرواحنا عن ثناء الأمة المصرية ، ولكننا نشتهى أن تكون أمتنا غاية فى الوفاء ، وهو أشرف الخصال ، فهل تسمع أمتنا هذا الصوت ؟

شاءت المقادير أن تكون لمصر الزعامة الأدبية فى الأقطار العربية والإسلامية ، أفلا يكون من العيب أن يحفظ قدر القلم المصرى فى جميع الديار ، إلا الديار المصرية ؟

بأعصابنا ودمائنا غنمنا المعركة الأدبية ، بعد نضال حشدت فيه قوى كريمة تتمتع بالهواء الذى تنسمه ملك بنى أمية ، وملك بنى العباس .

ولن تنزع الراية الأدبية من أيدينا ، ولو عاد عهد الخلفاء فى قرطبة ودمشق وبغداد ، فإن شاء بنو الأعمام والأخوال أن يناضلونا من جديد فنحن على استعداد للنضال

وهل يحتاج بنو الأعمام والأخوال إلى مثل هذا الوعيد ؟

إن عطفهم مبذول بغير حساب ، ونحن لا نشكو غير تجنى الحكومة المصرية ، فهى لا تعترف للقلم بحق إلا إن كان صاحبه من السياسيين ، وسنؤلب جميع أدباء اللغة العربية على الحكومة المصرية ، فلتعرف هذه الحكومة أن صبرنا لن يطول على تجنيها الجميل !

***

أما بعد فقد عز على أن يحظى ناس بمقابلة جلالة الملك ، ثم لا يكون نصيبى غير كتابة اسمى فى دفتر التشريفات ، وأنا من فئة قليلة تحمل المصابيح لإنارة القلوب والعقول ، ولها فضل معروف أو مجهول فى بناء هذا الجيل

وكذلك قررت الصوم عن القاهرة فى هذا اليوم ، والصيام فى العيد حرام لا حلال ، فهل يغفر الله هذا الذنب العميم ؟